

المخطوطات المصورة بدير سيناء

- ٢ -

سالم الفضائل

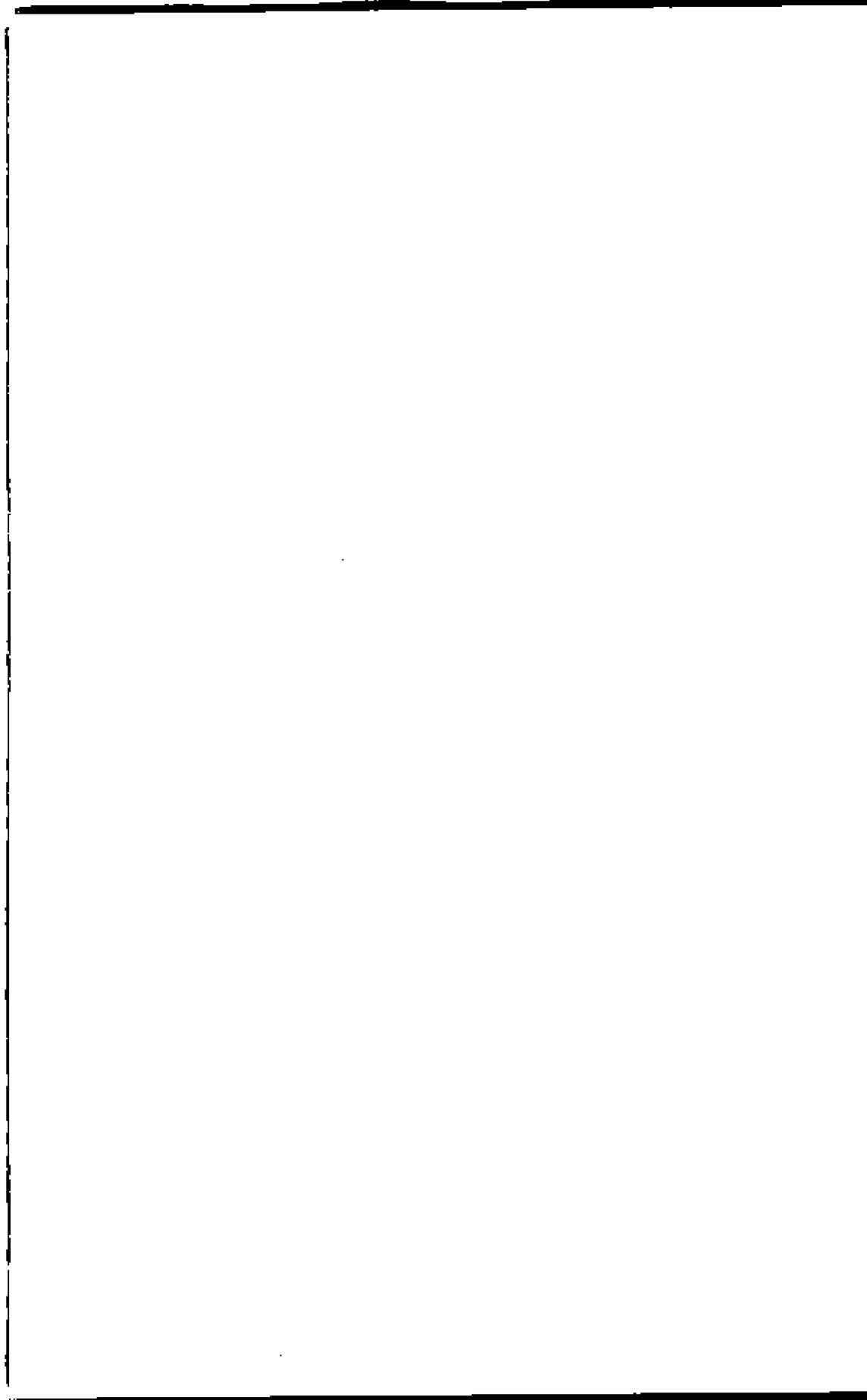
لصاحبه

يوحنا وليس دبر سيناء
(أواخر القرن السادس)

للإستاذ الدكتور

سامي شنوده

الأستاذ المساعد بقسم الآثار



يحمل مخطوط «سلم الفضائل» ليوحنا رئيس دير طور سيناء ، رقم ٣٤٣ عربي (١) ضمن مجموعة مخطوطات دير القديسة كاترينا ببناء والبالغ عددها نيفا وسبعمائة مخطوطاً . ويرجع إتهامى بهذا المخطوط العربي إلى احتوائه على منمقين ، تمثل الأولى يوحنا مصنف الكتاب (شكل ١) بينما تمثل الثانية «سلم الفضائل» وهو موضوع الكتاب (شكل ٢) (٢)

يرجع تاريخ هذا المخطوط إلى عام ١٦١٢ ميلادية وبالتحديد إلى شهر أكتوبر من هذا العام إذ جاء في حاشية الكتاب الأخير ما نصه ونجز هذا الكتاب على يد أفقر عباد الله تعالى ثابت الخورى الحموى المسيحى وذلك بتاريخ أوائل شهر تشرين الأول سنة سبعة آلاف ومائة وعشرين الموافق شهر رمضان ١٠٢٠هـ (٣)

وإذا كان هذا المخطوط هو أحدث المخطوطات العربية الخمس التى تمتلكها مكتبة الدير «سلم الفضائل» (٤) فهو الوحيد بينها الذى يشتمل على

Kenneth W. Clark, *Checklist of Manuscripts in St. Catherine (1) Monastery, Mount Sinai, Microfilmed for the Library of Congress 1950, p. 34*

المخطوط من الورق وتبلغ عدد ورقاته ١٦٩ ورقة تكون كل ثمانية منها ملزمة منفصلة وطول الصفحة ٣٠ سم و عرضها ٢٠.٣ سم وتشغل الكنية حيزاً طوله ٢٠.٩ سم و عرضها ١٤.٥ سم بينما تشغل كل من صورتية حيزاً طوله ١٣.٥ سم و عرضها ٨.٥ سم .

(٢) لم يسن نشر أى من الصورتين .

(٣) سنة ٧١٢٠ محسوبة على تقويم تاريخ العالم وبده الخليفة منذ آدم ويوافق عام ٥٠٨ هـ ق م

(٤) هذه المخطوطات هى :

(١) سيناء عربى ٣٣١ ورق ٢٠.٨ ورقة ١٢٢٧ م .

(٢) سيناء عربى ٢٢٢ جلد ٢٩٢ ورقا القرن العاشر .

(٣) سيناء عربى ٢٢٨ ورق ١٦٢ ورقة القرن الثالث عشر .

(٤) سيناء عربى ٢٤٤ ورق ٢١٧ ورقة القرن الثالث عشر .

هذا بالإضافة الى مخطوطات سيناء عربى ٣٤٣ .

C.f. Clark, *Checklist*, p.34.

صورة للمؤلف وصورة للسلم - ولعدم توفر أية دراسة نقدية لنص الكتاب حتى الآن ، سواء في لغته الأصلية وهي اليونانية أو في إحدى اللغات التي تترجم إليها وهي السريانية واللاتينية والأرمنية والروسية والاسبانية والإنجليزية إلى جانب العربية ، فن العسير في الوقت الحاضر تقدير الجهد الذي قام به الكاهن السورى ثابت الحموى والذي عبر عنه بكلمة «نجزه» ، فهل أراد أن يقول انه قام بكل ما يتطلبه المخطوط من ترجمة ونسخ وتصوير وتجليد ؟ أم قام بدور الناسخ والمصور دون غيرها أم بأحدهما فقط ؟ على أنه من المفيد أن نذكر أن أقدم المخطوطات التي وصلت إلينا لكتاب سلم التفاضل جاء بالترجمة السريانية ويرجع إلى عام ٨١٧ ميلادية (١) - وكذلك وصل إلينا مخطوط بالأصل اليوناني ويرجع إلى القرن العاشر (٢) بينما يرجع أقدم المخطوطات العربية للكتاب نفسه إلى نفس القرن العاشر الميلادي (٣) وكلا المخطوطين من مقتنيات مكتبة دير سيناء .

المؤلف :

يعرف المؤلف باسم يوحنا وشهرته «صاحب السلم» وهي مترجمة عن اليونانية حيث يرد اسمه *Κωνσταντίνος ὁ τῆς κλιμακῶς* وكذلك يطلق عليه من باب الاختصار يوحنا السلمي أو الدرجي وأيضاً الصاعد (٤) وكلها معان يتضمنها لقبه اليوناني *κλιμακῶς* ومعلوماتنا عنه طئيفة جداً وهناك شك حتى في تاريخه إذ أن مصدرنا الوحيد في التعرف على تاريخ حياة هذا الراهب هو دانيال الطورى ، نسه

(١) British Museum, (add. Ms. 14593) ويحمل تاريخ ٨١٧ ويحتوى عل

بمجرد زخارف أنظر :

W. Stasoff, *L'ornement Slave et Oriental*, St. Petersburg, 1887, Pl.

CXXVIII, nos 1-2

(٢) Sinai Gr.417 ويحتوى عل رسومات السلم أنظر فيما بعد .

(٣) سيناء هري - ٣٣٢ يحتوى عل ٣٩٢ رق ويحتوى عل مجرد زخارف (لم ينشر)

(٤) عربيه كذلك د. لويس مرض أنظر أهرام الجمعة ٣ مارس ١٩٦٧ «بيجودية بلا سوع»

إلى دير طور سيناء ، ويبدو أنه كان ملازماً ومعاصراً للمؤلف ، ومنه تعلم أن يوحنا صاحب السلم دخل في ملك الرهبنة وهو في السادسة عشرة من عمره وعاش منفرداً ومتوحداً بدير سيناء مدى أربعين عاماً وقع عليه الاختيار بعدها ليصبح رئيساً للدير . وقد تولى هذا المنصب لفترة قصيرة إلى أن وافته المنية (١) - ويرجع المؤرخون أن هذه الفترة امتدت من سنة ٥٩٢ إلى سنة ٥٩٦ ميلادية (٢) .

وقد اتخذ المصور من هذه المعلومات عنواناً للوحة الأولى (شكل ١) حيث ورد في أعلاها (صورة أبينا القديس يوحنا كاتب سلم الفضائل رئيس جبل الله سيناء المقدس) وهي تمثل أحد رجال الدين في مستقبل العمر ذي لحية سوداء مديبة - يرتدى قفطاناً أزرق اللون ويتمنطق بحزام أحمر وقد اسدل على كتفيه عباءة خضراء وعلى رأسه عمامة يتلبد منها شال بنفسجي اللون ومن فوقها هالة القديسين - هذا ويجلس يوحنا على أريكة أمام مكتب صغير كمن يكتب في كتاب مستخدماً ريشة ومجبرة موضوعة إلى جانب الكتاب - ورغم بساطة خطوط الوجه والملامح فقد بدأ مستغرقاً في تفكير عميق ، وهو أمر تعبر عنه أيضاً حركة أنامل يده اليسرى فقد رفعها أمامه كمن يتأمل فيها .

ولا شك أن هذه الصورة منقولة عن أصل تقليدي لصورة يوحنا الدرجي كانت ، على ما يظن ، قد انتشرت ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي وهي تمثل المؤلف عاكفاً على الكتابة - ومن أجل أمثلة هذه الصور التقليدية تلك التي وصلتنا في مخطوط مكتبة الفاتيكان الذي يرجع (٣) إلى

(١) وردت هذه الإشارة تقدمية في كل النسخ التي وصلت إلينا .

V. Beneshevish, "Sur la date de la mosaïque de la Transfigur - (٢)
ation au Mont Sinai" *Byzantium*, I, 1924, pp. 145ff

ولاحتمال تواريخ أخرى لاحقة لهذا التاريخ أنظر

F. Nau, "Note sur la date de la mort de S. Jean Climaque",
Byzantinische Zeitschrift, XI, 1902, pp. 35-37

Vatican. Gr. 394.

(٣)

هذا العصر حيث نرى يوحنا جالاً ، متجها إلى اليمين باسماً على ركبته ورقة يوشك أن يكتب عليها .

وقد أدخل فنانا السورى تعديلات ، ليست جوهرية تماماً ، على هذه الصورة التقليدية وهدفه من وراء ذلك ، على ما يبدو ، هو تعريبها ، إذا جاز لى أن استخدم هذا التعبير فهو يجعل يوحنا يتجه إلى ناحية اليسار حتى تتمشى الصورة مع طريقة الكتابة العربية من اليمين إلى الشمال . كذلك نجد أنه يتطور مع عصره ويضيف مكتبة صغيرة أمام الكاتب متغافلاً بذلك عن حياة الزهد التي نعرف أن يوحنا قد عاشها - أضف إلى هذا استخدام العمامة ذات الشال كغطاء للرأس متمشياً في ذلك مع ما اعتاده رجال الدين الشرقيون .

على أن أهم تغيير طرأ على صورتنا من الناحية الأيقونوجرافية هو بكل تأكيد إظهار شعر اللحية باللون الأسود مخالفاً بذلك الصورة التقليدية حيث مثلت باللون الأبيض إشارة إلى تقدم المؤلف في السن .

رغم هذه الاختلافات التي ، كما ذكرت ، دعت إليها ضرورة تعريب الصورة ، فإنه من المؤكد أن فنانا العربي ، مثله في ذلك مثل الفنان اليوناني الذي صمم الصورة التقليدية ، قد استعان في تصميم صورته ، بصور تقليدية للإنجيليين الأربعة ، متى ومرقص ولوقا ويوحنا وهي بدورها ، كما تعلم منقولة عن صور وتمائيل مفكرى وفلاسفة العصر الهلنستي والعصر الروماني (١)

ومن الجدير بالذكر أن مكتبة دير سيناء تحتفظ بصورة تقليدية أخرى ذات طابع مخالف لصورتنا - فقد رسم يوحنا ، في المخطوط سيناء - يوناني ٤١٧ (شكل ٣) وهو من القرن العاشر ، في صورة نصفية تتوسط ميدالية وتمثله هذه الصورة رجلاً ملتجئاً مضطماً في السن ، رافعاً يديه أمامه كمن

A.M. Friend, Jr. "The Portraits of the Evangelists in Greek (١) and Latin Manuscripts". (Reprinted from *Art Studies*, part I, 1927, part II, 1929

يصلى وقد عرف بالقدّيس يوحنا *ἱερεὺς Ἰωάννης* . هذه الصورة لها مثيلات كثيرة في المخطوطات المصورة التي أشهرها كتاب « المقارنات المقدسة *Sacra Parallela* » لمؤلفه يوحنا الدمشقي وهو مخطوط من القرن التاسع الميلادي ومخفوظ في بازيس (١) إلا أننا نلاحظ أن وضع البدين ووجود الحالة المقدسة توحيان بأصل كان يمثل يوحنا واقفاً مستوحى هو الآخر من تماثيل وصور الخطباء اليونان والرومان (٢) .

أما الصورة الثانية في مخطوطنا العربي فتمثل كما هو وارد في أعلاها (شكل ٢) «صورة سلم الفضائل والرهبان الصاعدين على درجات ومقاتلة الشياطين لهم وهبوط المتوازين إلى الجحيم» .

لقد ورد في مقدمة المخطوط نص للرسائل المتبادلة بين يوحنا رئيس دير رايشو (Raithu) وهو الأسم اليوناني لمدينة الطور ، وبين يوحنا (الترجي) رئيس دير سيناء «على نمط» هكذا جاء في النص «من الرواية التي رأها يعقوب بينا كان يرعى غنمه وإذ يلم يتند من الأرض إلى السماء والملائكة نازلين وصاعدين عليه» (٣) . مشتملا على تعليقات وإرشادات روحية للرهبان ليصبحوا بفضلها مهيتين لتصعود إلى السماء ..

إن فكرة التصعود إلى السماء عن طريق سلم ، ليست جديدة . فالسلم كرمز ديني عقائدي كان له في مصر أثر كبير ويظهر في نصوص الأهرامات ويستمر (٤) حتى العصر القبطي (٥) - كذلك هناك إشارات

(١) Bible. Nat., cod gr. 923

A.M/ Friend, *op.cit.* (٢)

(٣) ترجمتها إلى سفر التكوين (٢٨ : ١٠ وبعدها) .

H.B. Blok, "Zur altägyptischen Vorstellung der Himmelsleiter, (٤) *Acta orientalia*, VI, T927—28, pp. 257 ff.

G. Michalides, "Echelle mystique chretienne dessine sur lin", (٥) *Bulletin de Société d'archéologie Copte*, XI, 1945

عديدة عن سلم روحى فى الأساطير الأخرى (١) ومن ثم أصبح لفكرة السلم مغزى خاص فى الكتابات المسيحية فيتكلم يوحنا ذهبي الثم عن سلم يصعد به الإنسان من الأرض إلى السماء ويستخدم ثيودوريت (Theodoret) (٢) نفس الخيال المجازى لوصف تقدم رهبان سوريا نحو الكمال (٣) . ثم يأتي بعد هذا يوحنا الدرجمى ليعيش فى سيناء ويصبح بذلك ، كما لو كان موسى قادراً على اعتلاء الجبل للحصول على تعليمات من الرب . ويؤكد هذا ما جاء على لسان دانيال فى المقدمة وكذلك ما جاء على لسان يوحنا رئيس دير الطور بالإضافة إلى ما يذكره المؤلف عندما يتحدث عن «الألواح الروحية» التى يكتب عليها كتابه (٤) ، مستعياً ، على ما يبدو ، ألواح القانون التى أعطيت لموسى النبي .

ولكن يوحنا الدرجمى يجعل من هذه الصورة الخيالية المجازية ، تمرينات روحية لها تأثير نفسانى واضح على سلوك الرهبان وسرعان ما أصبح كتابه هذا التأييد من أوسع الكتب الدينية انتشاراً بدلالة العدد الكبير من النسخ الخطبة التى وصلت إلينا .

تضمن الرسالة التى كتبها يوحنا الدرجمى ثلاثين مقالا بعدد درجات السلم الذى يصل بين الأرض والسماء ويفسر لنا المؤلف بهذا العدد بأنه رمز لسنى حياة السيد المسيح على الأرض قبل أن يبدأ رسالته ، وهذه السن ، فى رأى المؤلف ، هى سن الكمال والرشد والرجولة الحقة - والفكرة وراء هذا أن الراهب إذا أمكنه مراعاة هذه التعاليم يمكنه الوصول إلى مستوى الكمال القدسى .

A. B. Cook, *Zeus, A study in Ancient Religion*, Cambridge, (١)

1914—40 II pp. 121—140.

Migne, P.G., LIX, Cols 454—455 (٢)

Migne, P.G., LXXXII, Col. 1484 C. (٣)

Migne, P.G., LXXXVIII, Col. 650. (٤)

يتناول يوحنا الدرجى في المقالات الثلاث الأولى وصف الأسس
 التى تقوم عليها الحياة الدينية أولاً هجر الحياة الدنيوية *περι ἀποσταθ βίου*
 وتطور تعاليمها حول «الزهد ومباينة هذا العالم الغرار» وثانياً هجر التقنية وزوال
 التألم لفقد الموجودات *περι ἀπροσπαθείας* أى عدم التأثر بالعواطف : وثالثاً
 الغربة والأحلام *περι ξενιτίας ἐνοσηρίων* أى الرحيل عن عالم—ويحتوى الفصل
 من الرابع حتى الخامس والعشرين على مجادلات في الفضائل التى يجب أن
 يتحلى بها الراهب وفي الرذائل التى يجب عليه أن يتجنبها—ففى ناحية الفضائل
 الطاعة *περι ὁσθακοῆς* والتوبة *περι μετανοίας* والتواضع والوداعة *περι*
ἀσχησίας, πραοῦτος وفى الناحية الأخرى الخداع والتكبر *περι*
καταλαλίας *μησικακίας* والطمع *περι χαστριμαχίας* وحب الظهور
περι φιλαρχωρίας وهكذا— ويتناول المؤلف في الفصل السادس
 والعشرين موضوع النطة *περι διακρίσεως* وهى كفضيلة لاغنى عنها
 للراهب في صراعه ضد الرذيلة— وتتناول المقالة السابعة والعشرون الوحدة
 والإنفراد *περι ἡσυχίας* وتأتى في قمة مراتب الرهبة ولكن يجب ألا
 يقدم على ممارستها الا من زاوّل الرهبة الجماعية— يتبع هذا فصل حول
 الصلاة *περι προσευχῆς* وآخر حول الأطمئنان *περι ἀσθαθείας* وأخيراً
 وبعد أن يتحقق للراهب نصيب حسن من كل تلك الفضائل، مجنباً نفسه
 الشهوات والمعدات الجسدية يمكنه أن يكرس نفسه للتأمل والتفكير حتى
 يصعد إلى قمة السلم وهى الدرجة الثلاثين حيث يعيش متديجماً في الثلاثى
 الروحى أو كما يسميه المؤلف «الثالث المكين للفضيلة» ويعنى به الإيمان
 والرجاء والمحبة *περι πίστεως, ἐλπίδος καὶ ἀγάπης*.

يبدو لأول وهلة وكأن صورتنا (شكل ٢) خير تسجيل تصويرى
 لكل ما جاء في المخطوط من نصوص وان دلت على شئ فعلى عمق تفهم
 فنانا العربى لكل ما ورد في الكتاب. فعلى قمة جبل سيناء يرتفع سلم مدرج
 ليصل إلى السماء حيث مثل يسوع المسيح $\overline{IC} \overline{XC}$ يميل من قوس السماء
 ليقبض بيده اليمنى على مساعد أول الرهبان الذين نجحوا في صعود الدرجات

الثلاثين للسلم - يتبع هذا الراهب عدد كبير من الرهبان في محاولات مريرة لارتفاع السلم درجة بعد درجة إذ انتشرت الشياطين ، في شكل حيوانات مجنحة تعلق رؤوسها الخنزيرية قرون وأقدامها على شكل أقدام الديك ، يجلبون ضعيفي الصبر والإيمان إلى حيث يلقونهم في فم حيوان على شكل اثنين فاغرافاه ليلتهم أحد الرهبان ممن نجح الشيطان في اسقاطهم كل هذا في حركة وحيوية ساعد على إخراجها تعدد الألوان الزاهية من ناحية وتباين حركات الشياطين من ناحية أخرى . وحيناً أن ندقق النظر في صور الشياطين التي على السلم وعمار اليه كمن تدرك مدى سعة خيال الفنان في تجريد وإخراج فكرة القوة الشيطانية ، فهم من يهاجم من الخلف ، ومنهم من يستخدم خطافاً ، ومنهم من يجذب بأسنانه ، ومنهم من يستعين بكلتا يديه في حمل أحد الحائرين ، بينما يجذب الحائر الآخر من يده وشعره ، وأخيراً هناك ذلك الشيطان الذي مثل وكأنه يساعد أحد الرهبان في الصعود من درجة إلى التي تعلوها لا شك أنها تصوير لمكر الشيطان وخبيثة .

وإلى يسار الصورة رسم الفنان مبي على شكل كنيسة مشيراً بذلك إلى كنيسة التجلي ببناء يخرج منها رئيس الدير يوحنا وعلى رأسه هالة القديسين تتبعه مجموعة من مساعديه الرهبان كأنهم في طريقهم لمشاهدة تطبيق تعاليمه عملياً ، والمكان كما ذكرت من قبل ، هو سيناء حيث عاش الراهب في ديرها وما يؤكد هذه الحقيقة أن الفنان قام بتسجيل ثلاثة أماكن هي أهم المعالم في سيناء . فعلى هضبة عالية ذات نتوءات جبلية يظهر ملاكان جانيان أمام «جسد القديسة كاترينا» مشيراً بذلك إلى أعلى قسم جبل سيناء وهو المعروف بجبل كاترينا حيث عثر ، كما تروى أساطير القرن الحادى عشر الميلادى ، على عظام القديسة التي استشهدت في الإسكندرية في نهاية القرن الرابع الميلادى - وفي وسط الهضبة ظهرت شعلة من نار كتب عليها «صورة العليقة» مصوراً بذلك مكان العليقة المحترقة التي شاهدها النبي موسى إبان رحلة هروبه من أرض مصر على رأس بني إسرائيل - هذه العليقة أصبحت في العصر المسيحي رمزاً للعداء مريم « التي حملت المسيح دون

أن يمس بكارنها بشره ، ولهذا سجل الفنان صورة للعذراء تحمل الطفل في داخل النار المشتعلة - على أن أهم معالم سيناء هو بدون شك ، جبل موسى ، حيث تسلّم النبي ألواح الوصايا من الله وقد قام الفنان بتسجيل هذا الجبل فرسم رجلاً بلائس الرعاة ، تغطي رأسه قلنسوة مخروطة ، جاثياً على ركبته ورافعاً رأسه إلى أعلى وكتب فوقه «النبي موسى» .

بعد هذا التحليل للصورة يبدو واضحاً أنه رغم احتوائها على صورة السلم فهي تحتوي على عناصر لا يمكن تفسيرها بمجرد الرجوع إلى النص أو حتى إلى روية بوحنا - فالتين مثلاً ، يمثل الجحيم والرهبان المتخاذلين يهونون فيه - وحيث أنه لم يرد في النص أى وصف ولو ضمنى لهذا العقاب فنحن نرى أن الصورة قد بعدت بهذا عن مجرد التوضيح التصويرى للنص إلى صورة تعليمية ذات معزى أوسع ، فهي توحى بأن السلم رمز ليس للتقدم الروحى فحسب ولكن للحياة الدينية بأكملها ، والوقوف من فوقه معناه الهلاك - ولا شك أن الفضل في تحويل الصورة لتتضمن هذا المعنى الشامل يرجع إلى الفنان الذى قام بتصويرها مستوحياً فكرته من مصدر آخر يتحدث عن اليوم الآخر والجحيم ، خاصة وأن صورة المسيح على رأس السلم لا يدق أوجع إليه كذلك بفكرة اليوم الآخر وهو ما عبر عنه برسم التين - .

لكى نتبين مدى التطور الذى طرأ على صورة «سلم الفضائل» منذ اقتباس فكرتها عن النص الروحى إلى وقت ظهورها في مخطوطات العربى أقصر بحثى هنا على المخطوطات اليونانية الموجودة بمكتبة دير سيناء (١).

١- (١) سيناء - يونانى - ٤١٧ - من الرق - عدد الورقات ٢٥٤ - من القرن العاشر

(٢) سيناء - يونانى - ٤١٨ - من الرق - عدد الورقات ٣١٣ - من القرن اثنا عشر

(٣) سيناء - يونانى - ٤٢٣ - من الرق - عدد الورقات ٢٤٠ - من القرن

١١ - ١٢

(٤) سيناء - يونانى - ٤٢٧ - من الرق - عدد الورقات ٢٤٠ - من القرن

١٦ - ١٧

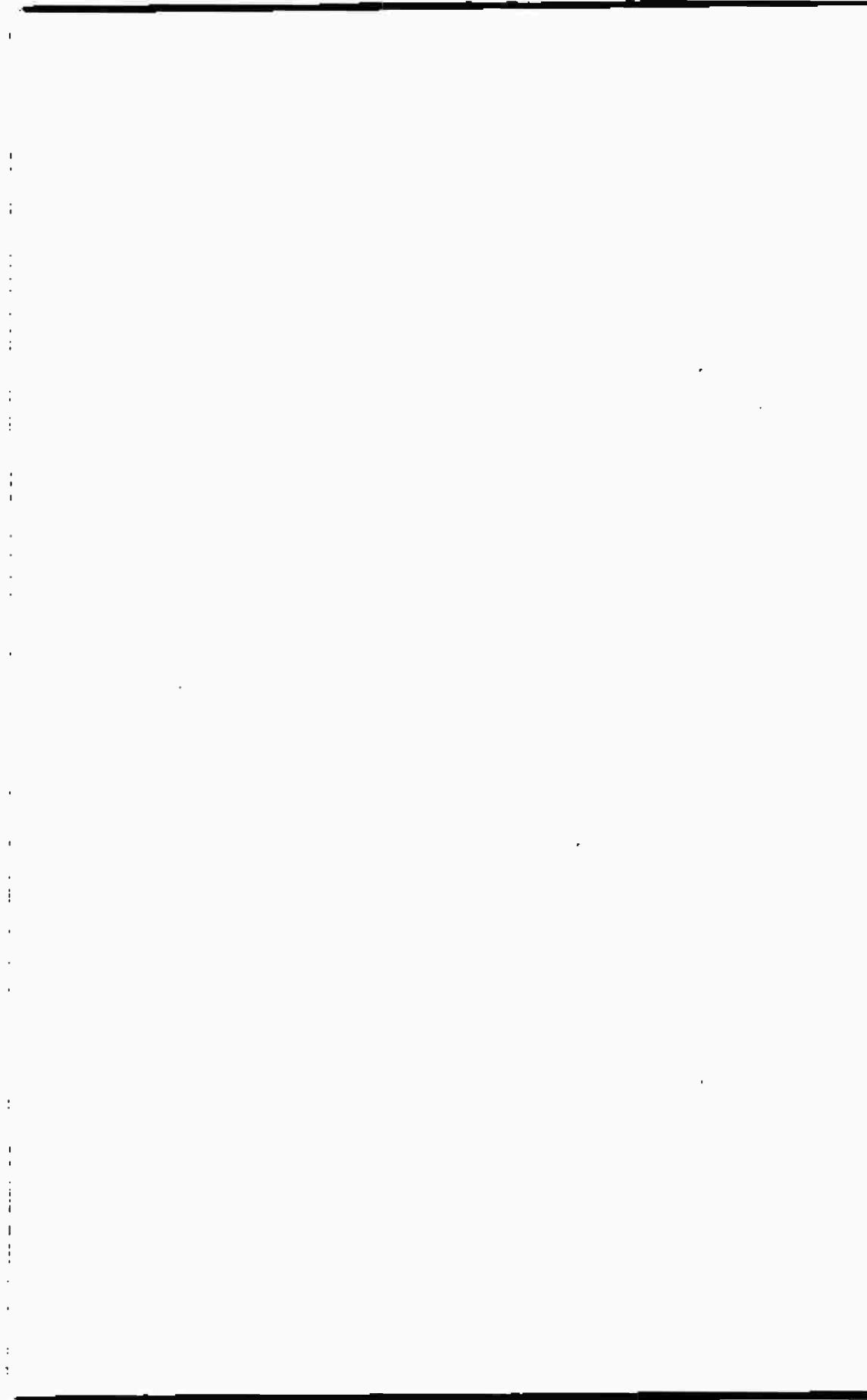
Clark, Checklist, pp, 7,26, 27.

راجع





شکل (۱)



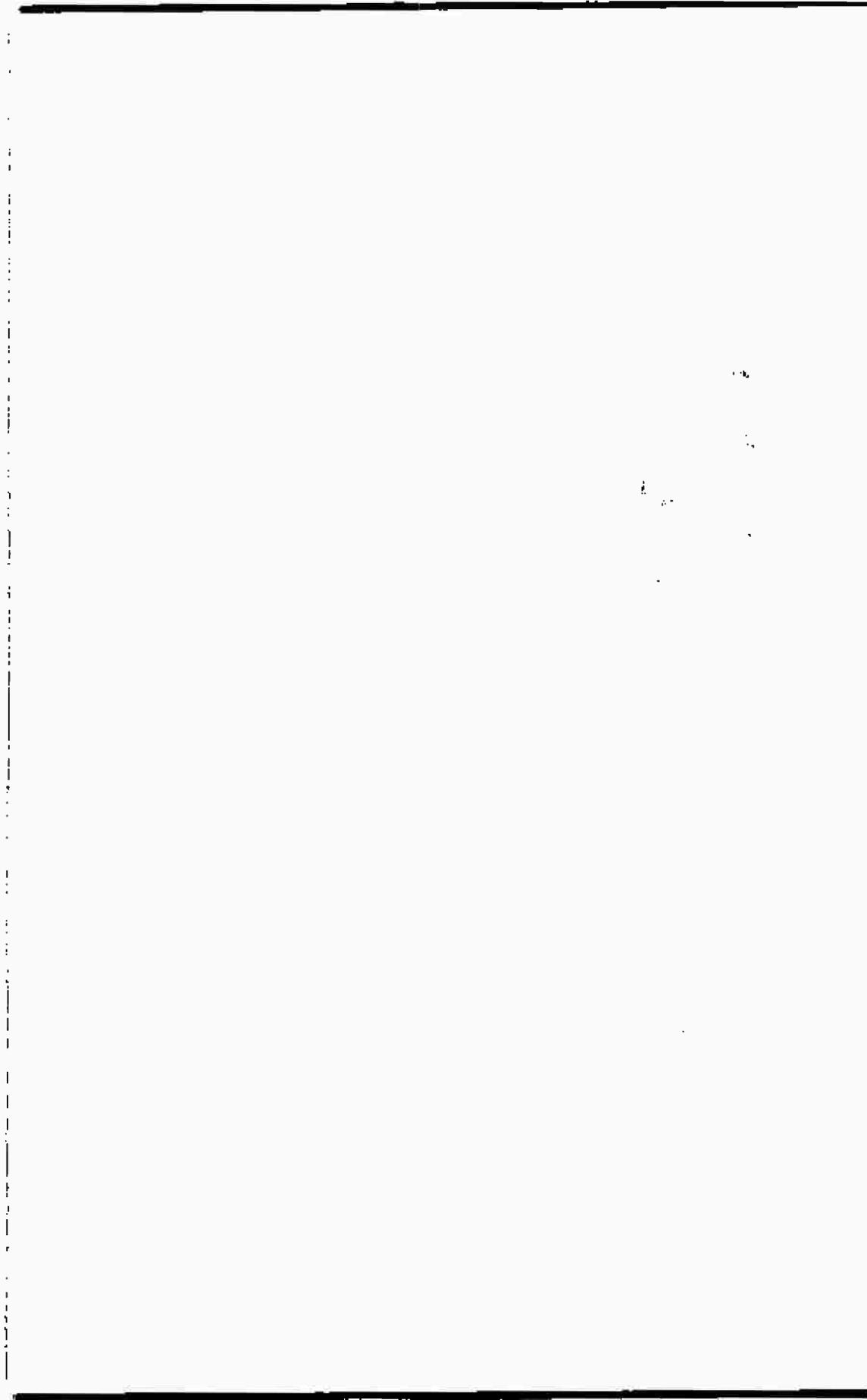


شکل (۲)

2.



شکل (۱۲)



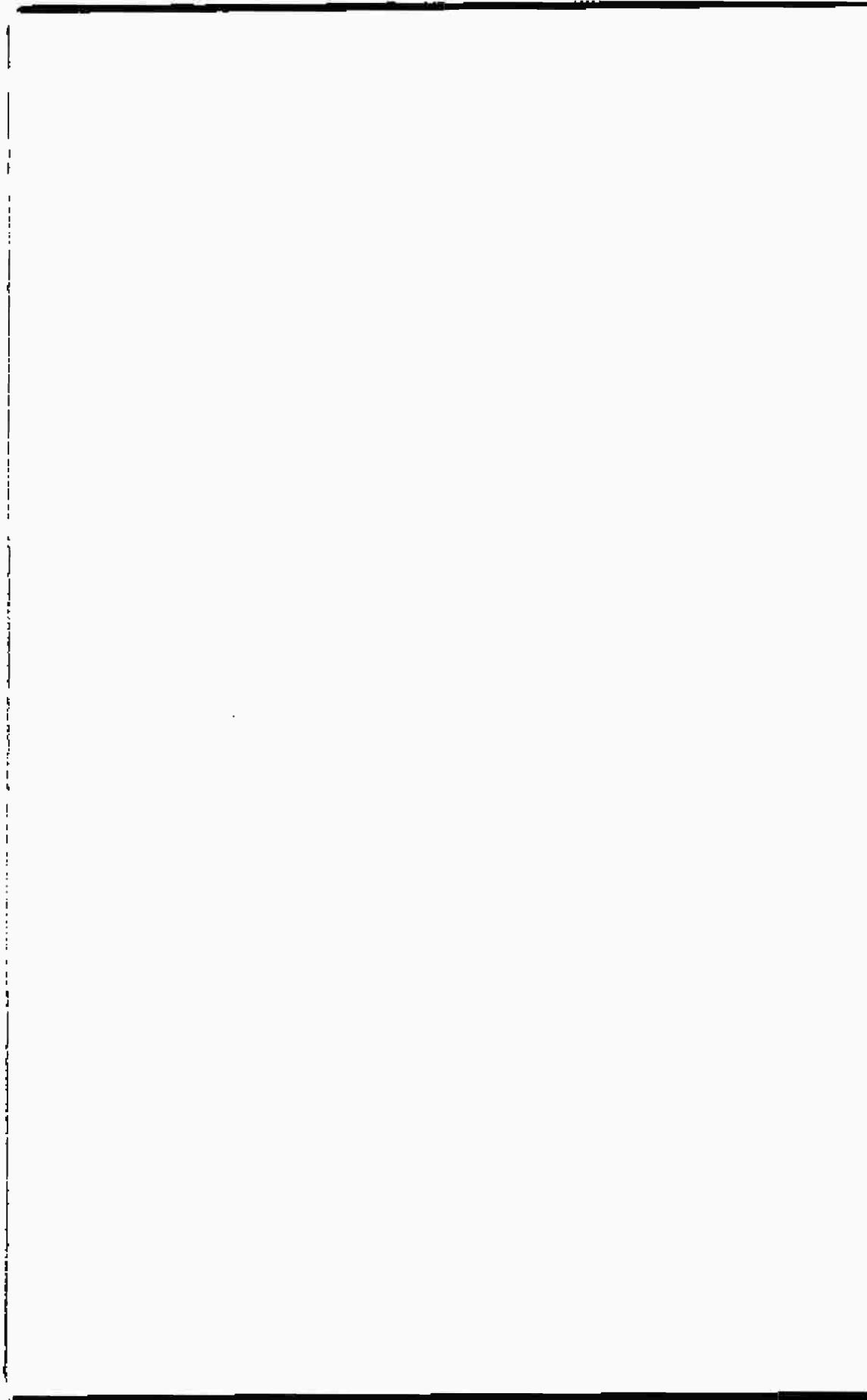


شکل (۴)



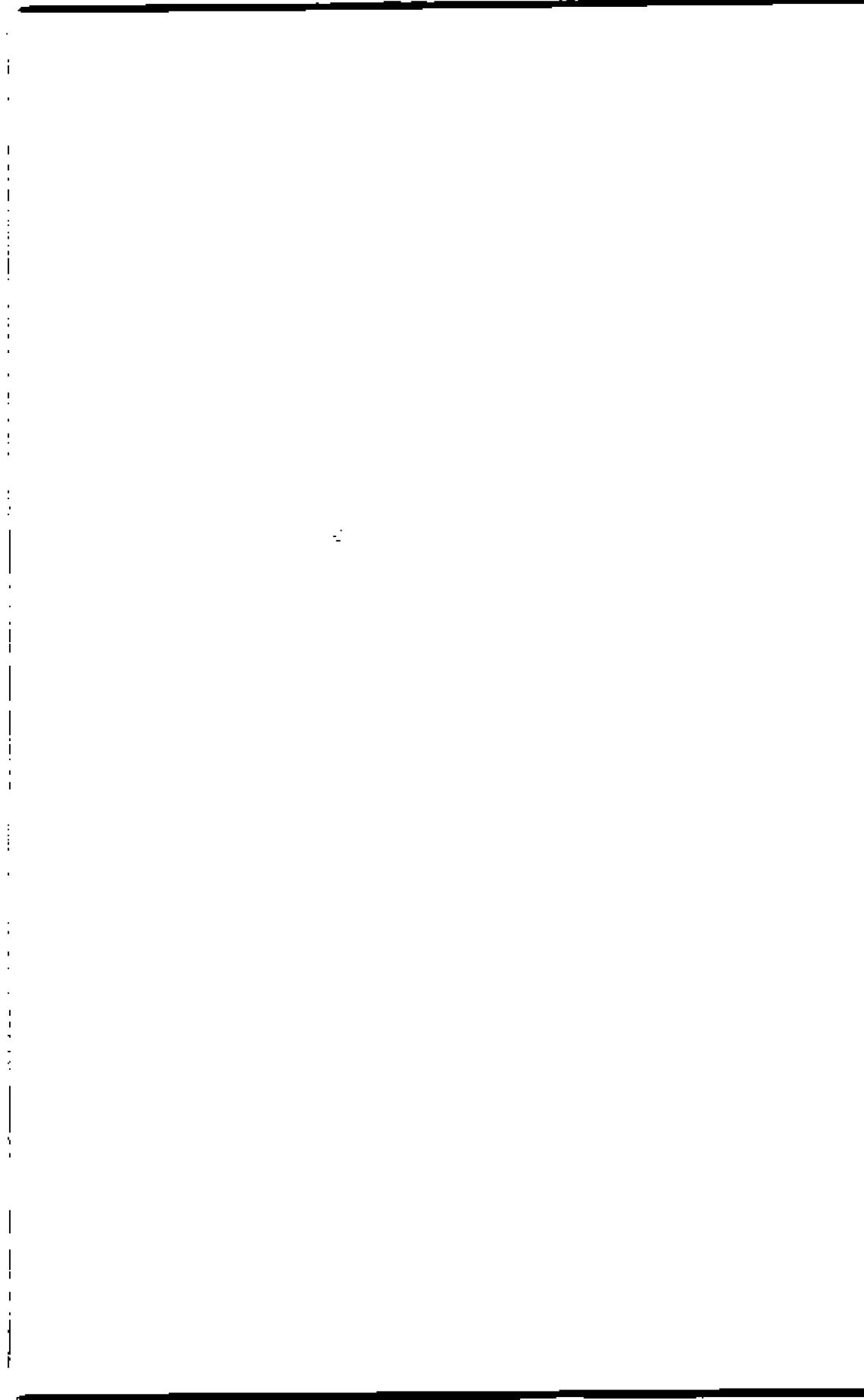


شکل (۵)



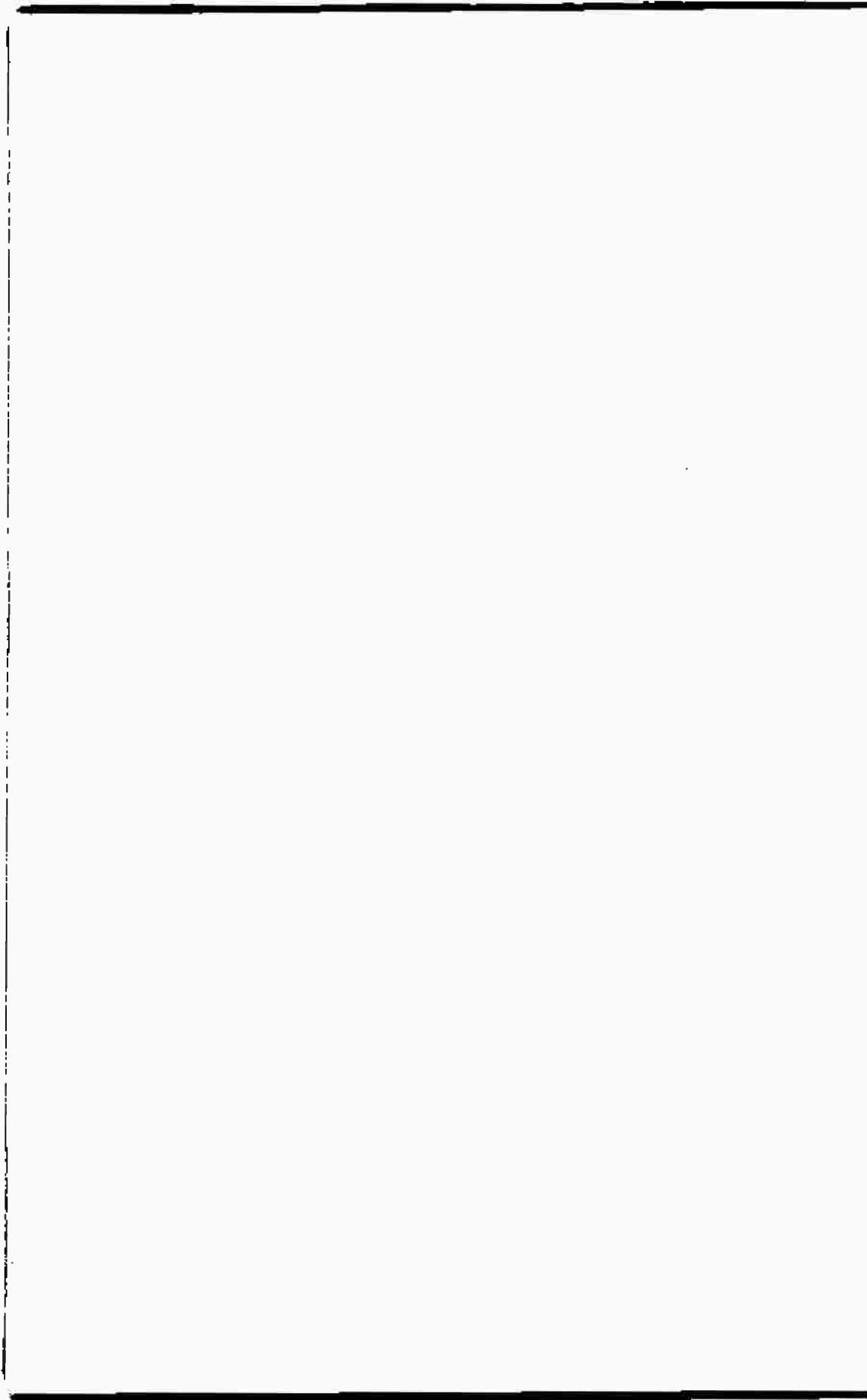


شکل (۱)





شکل (۳)





شکل (۸)